الدراسات العليا المعنى والوظيفة

أ.د طالب العنزي*

- في البدأ لا بد من الاعتراف بعدم وجود بؤرة بشروط وخصائص معينة يمكن الانطلاق منها لتقرير حالة الدراسات الانسانية وتأشير اشكالياتها وطبيعتها ومستوى فاعليتها ... الا ان الذي يمكن الاتفاق عليه وعدم الاختلاف فيه ان هناك ازمة وتردي خطير في واقع دراساتنا الانسانية المعاصرة وان تراكمية هذه الازمة ، ربما تفضي بالقريب الى تعطيل وضمور دورنا في الدراسات الانسانية ، وتلك اشكالية خطيرة تمس جوهر الامة ووجودها ، وتهدد صيرورتها وبعدها الانساني ، الامر الذي يستدعي توفيق وفحص واستخراج ومكاشفة .
- اذا اتفقنا على وجود ازمة في دراساتنا الانسانية لا بد من التساؤل ، اين هي بالتحديد وما طبيعتها وما ابعادها وهل هي قديمة متأصلة ، ام عارضة مستحدثة ؟ هل هي في الباحثين او في الموضوعات المطروحة للدراسة ، ام انها في المكتبات والمصادر المعتمدة ، او في مناهج البحث وعلاقاته الاخرى : الاشراف ، التدريس ، التخطيط والادارة العامة اذ كانت الدراسة مشروعا اكاديميا .

اذا كانت ازمتنا بمستوى الظاهرة ، وهي كذلك ، فلا نجد تعليلها بعامل واحد مما تقدم ، انما كل ما اشرنا اليه من عناصرها ينطوي على عثرة ومشكلة جزئية ، وبالتالي فان مشكلتنا مجموع تلك العثرات بتراكم آثارها ، وهي في شكلها الاخير عثرات مضاعفة ومشكلة مركبة وهي نتاج محصلة من الاخفاقات .

- ما الاثر الذي تتركه الازمة في الدراسات الانسانية تكون الاجابة اكثر وضوحا اذا نظرنا الى حقل الدراسات الانسانية ومادتها وصلتها بالإنسان والمجتمع والمؤسسة ..

لا خلاف ان الدراسات الانسانية تعني بالأديان والادب والفنون والادارة والقوانين والتواريخ والسير والمجتمع والاقتصاد والسياسة وانظمة الحكم ، وهي بالتالي مادة روح الامة وضميرها وطابعها وشكلها وميزتها بين الامم ، كما هي حقيقة وجودها وصيرورتها .

وعلية يكون التراجع في الدراسات الانسانية لأمة من الأمم هو بداية انحلالها وارتدادها الى معكوس حركة التقدم الانساني ، وبالتراكم عبر الزمان والمكان تنجفل الأمة عن التاريخ وتدخل المنحى الذي دخلته الامم المنقرضة ... لا اقول نحن على اعتاب هذه المرحلة وفي حدودها ، ولكن لا اتردد من الاعتراف باننا قطعنا شوطا ملحوظا على طريق الانجفال عن حركة التاريخ

* استاذ دكتور في قسم التاريخ كلية التربية للبنات جامعة الكوفة

الى امام بالمقايسة الى حركة امم وشعوب اخرى في كل بقاع العالم ، في اسيا وافريقيا واوربا وامريكا ، احترمت تلك الشعوب نتاجها في الفكر الانساني وتمسكت به على ما عليه بعضها من خاصية التقنية الصناعية والمدنية التطبيقية .

- هل لازمتنا في الدراسات الانسانية المعاصرة صلة بتاريخنا ؟ وهل لها جذور ومقدمات في موروثنا المعرفي ؟ اعتقد ان الاجابة واضحة بدون مقدمات ، اذ اننا من امة ملأت سجل الانسانية ابتكار وتأسيسا ، هي التي انتجت الفكر الديني ، الوضعي وهي التي حملت الاديان السماوية وبشرت بها ، وهي التي ابتكرت الكتابة وعلما للفكر الانساني ، وهي التي اقامت الزرع وادامت الضرع ، وهي التي سبقت الى اقامة المجتمعات وتأسيس الدول وما رافق ذلك من تنظيم وادارة وقوانين تلك التي حملتها المسلات والرقيم الطينية ، ولنا في ادب العراق القديم بل في مقطوعة واحدة منه – ملحمة كلكامش – اعظم برهانية على عظمة الرؤية الانسانية بما انطوت عليه من بطولة واصرار على الحياة في اعظم مكابدة بشرية .
- ولنا في سجل العرب قبل الاسلام ما لا يقل شأناً عن ذلك ، اذ لنا دول بأنظمة سياسية وعسكرية واقتصادية كتبوا انظمتها بأيديهم ، ولنا ابداع في كل فنون الادب : الشعر والنثر والنقد والحكمة والخطابة والامثلة ، التي اعطت بمجموعها هوية راسخة ونمطا مميزا خصتنا بين امم وشعوب العالم ، ليس هذا فقط انما اهلت العرب لفهم وحمل اعظم رسالات السماء واثبتها ، ذلك لا يأتي عفوا ، انما عظمة التكليف تكشف عن عظمة المكلف واهليته للمهمة .

ذلك هو صادر عن عقل الامة وروحها الإيجابية التي انتجت معرفتها واسست واكتسبت اخرى وهضمت ومثلت ثم بنت فكرها وعلومها واظهرت قامتها وشكلها ومضمونها عبر فيض الابداع ودافق المعرفة الكامن فيها باطر انسانية تكاملت فيها النظرية والتطبيق .

- في ذلك الافق تفتقت عبقرية الامة بظهور الاسلام وصدر عناه ما انتجه العقل العربي الاسلامي في عصوره المختلفة : النبوى والراشدي والاموي والعباسي ، واذا خارطة النتاج العربي الاسلامي وطروحات العقل العربي وتطبيقاته قد ملأت الافاق وبهرت العقول وقدمت واحدة من اعظم تجارب العالم هي الحضارة العربية الاسلامية التي كانت ولم تزل مرجعية عظمى لنا ولغيرنا في العلوم والمعرفة الانسانية .

ان سر حيوية وقوة عصورنا المتقدمة في انسان تلك العصور حيثما كان في القيادة او القاعدة العامة كلهم اختمروا ولم يقفزوا بالأيام فوق السنين ، وبذلك اختطوا لهم نهجا وتعادلية سارت بهم وانعكست على كل شيء في الحياة منها ، حقلي الدراسة ودفتي المعرفة الدراسات الانسانية والعلوم التطبيقية اذا قامت على تعادل وتكامل ملحوظ على مدى تاريخنا السابق ، الامثلة كثير

وسأكتفي بالماحات منها ، في القديم نرى اكتمالات الفكر الديني وفرضياته واسسه ، ونرى الادارة والقوانين كتبت ، ونرى الى جانبها ابتكار العجلة والمحراث ، كما وجدنا من انجزلنا مرتسمات وبراهين اعظم نظرية هندسية تلك التي اطلق عليها المحدثون الاوربيون اسم " فيثاغورس " احد عظماء رجالهم . والعرب الذين كتبوا المعلقات ونظم الايلاف والعلاقات القبلية وحفظوا الانساب ، قدموا لنا ارثا محمودا في الفلك والنجوم والطب وغيرها ... ولإرانا بجاجة براهنيه على ازدهار الدراسات الانسانية والعلوم التطبيقية معا في العصر الاسلامي وعلى ازدهار الدراسات الانسانية والعلوم التطبيقية معا في العصر الاسلامي وعلى مدياته المختلفة ، ولنا في الدراسات مصنفي العلوم ما يغني عن التفصيل في هذا الشأن . ففي العلوم الدينية وصل التفسير الى ذروات الاقتدار وحدوده آنذاك لفهم النص القرآني وفي الاصول ثبتت العقيدة وفي الفقه استقررت الاحكام والمدارس الفقهية على اصولها ، وفي العلوم اللغوية تكفي الاشارة الى مدرستي الكوفة والبصرة وما اعقبهما من مدارس في حواضر اسلامية اخرى وفي التاريخ ظهرت الموسوعات الكبرى للطبري ، ابن الاثير ، ابن الجوزي ... والاقتصاد ظهر ابن سلام وقدامة بن جعفر وابن ادم القريشي وماكتبوا في الاموال والخراج وحيثيات الاقتصاد الاخرى ، وظهرت الاحكام السلطانية وانظمة الحكم للماوردي ولابي يعلى والوزارء والكتاب لابن عبدوس الجهشيارى ، والاجتماع والدولة والعمران لابن خلدون ، وبرع الجغرافيون في دراسة الاقاليم وتقسيم الارض وكتبوا في الاعراق والاجناس واحوال المناخ والطبيعة ورسموا الخرائط الباهرة للعالم وجلسة قصيرة مع كروشكوفسكي في تاريخ الادب الجغرافي العربي ترى عظمة الادريسي واليعقوبي وابن خرداذبة وياقوت الحمري وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم بأقوال تلك امثلة للذاكرة وليس لأحد الاطاحة بما انتجه العقل العربي الاسلامي في حقل الدراسات الانسانية. جاءت هذه الدراسات متوازنة ومتعادلة ومتساندة مع دراسات اخرى في حقل العلوم الصرفة، يكفي ان تنظر في ما كتبة ابن ابي اصيبعه وابن كلكل لترى عظمة الطب والاطباء في الدولة العربية الاسلامية ومجرد الاشارة الى اولاد موسى بن شاكر تذكر بما وصلت اليه الهندسة ومساحة الارض ، وبسهولة لك ان تقف على عظمة العقل العلمي عند البيروني وهو يكتب الازياج وحساب الزمن والتداول والصيروات ، لسنا بصدد الاستعراض ولكن مجرد استذكار الرازي والخوارزمي وابن سينا نفهم ان البحث العلمي كان في اتم الحضور جنبا الى جنب مع الدراسات الانسانية ، وذلك التلازم التكويني بين البحث العلمي والدراسات الانسانية وتلك التعادلية الخلاقة هي التي اعطت القوة والمنعة لموروثنا الفكري والعلمي ومنعت ظهور الازمة في أي منهما ، اذا فالأزمة معاصرة فمن اربابها وما هي اسبابها ؟

- اولا . ان الازمة معاصرة وهي حالة مرضية طارئة وهي صادر اصحاب العقلية احادية البعد التي لا ترى العلم الا في العلوم التطبيقية وخلاف ذلك ليس الا معارف كمالية يمكن الاكتفاء بالقليل منها او حتى الاستغناء عنها ، وللأسف الشديد ان بعض هؤلاء المتجزئين يتصدرون مؤسسات العلم والمعرفة .

- **اسباب الازمة** :

١ – انعدام التخطيط وعدم وضوح رسالة الدراسات الانسانية لدى بعض العاملين عليها ، الامر الذي جعل بعض هذه الدراسات عائمة غير مرتبطة بالحياة ولا تعالج مشكلة عامة او خاصة ، ان لم نقل بعضها تكرار مشوه لدراسات سابقة .

٢ – دخول فلسفة الدولة واشتراطاتها على الباحثين وافاق الدراسات الانسانية المرخص بها وعدم التساهل في ذلك ، الامر الذي ترتب عليه انحباس الابداع واعتقال العقل ، علما لم نر فلسفة دولة حقيقة ترتبط بالوطن والوطنية ، انما رغبات محاور وكتل واجندات .

٣ – تدخل الوزارة والجامعة في شؤون الاقسام العلمية حد التعسف ، الامر الذي افقد الاقسام العلمية القرار في ادق اختصاصاتها واقرب مسؤولياتها ، وليس للأقسام العلمية الا ان تنفذ ما تقرره حلقات الادارة في الوزارة او الجامعة على ما هي عليه من ضعف وعدم دراية ، بمعنى ان الادارة صادرت المؤسسة العلمية وبالتالي لا بد ان يكون المسار خارج السياق .

٤ – انظمة القبول في الدراسات العليا وخروجها عن الشروط العلمية ، الامر الذي ترتب عليه استبعاد الكثير من المتفوقين عن القبول ، وقبول عينات اخرى استطاعت الالتفاف واحتلال مقاعد الدراسة وهي ليست من الدراسة بشيء .

٥ – التدريسيون ، نسبة عالية منهم دون مستوى استاذ الدراسات العليا ... ولكن ما ان حصل احدهم على درجة استاذ مساعد حتى دخل مزاحما كبار الاساتذة مدعيا حق التدريس والاشراف والمناقشة ، لا نطالب بإغلاق الدراسات العليا على كبار الاساتذة ، ولكن علينا ان نعلم ان استاذ الدراسات العليا حصيلة وتجربة وعلم وخبرة ليس لقب علمي فقط ... هذا الخرق ادخل الى اجواء الدراسات العليا منهم دون الاقتدار البسيط .

٦ – عدم الاستفادة من الخبرات والتجارب العالمية ، وان كانت للوزارة او الجامعات انشطة في هذا المضمار ، فإنها بحدود الاداريين ، لم نر افادات فعلية لأساتذة الدراسات العليا ولا لطلاب الدراسات العليا ، وان حصل شيء من هذا فهو في حدود الترقيع والمجاملات .

٧ – السقف الزمني المقرر للدراسات العليا خانق وغير كافي وبالتالي يضطر الطالب والاستاذ المشرف الى قبول الحد الادنى او ما هو دون ذلك .

٨ – المقررات والمناهج المتبعة " وفيه تفصيلات " .

- **ما الحل** ...

١ – مطلوب الانتباه الى بعض البلاد العربية كسرت اعتقال العقل في الدراسات الانسانية ، حصل هذا في المغرب ومصر ولبنان ، مطلوب كسر الرقابة على معطيات العقل الانساني وحماية المفكرين ، هل هذا ممكن ، نعم والا كيف ظهر محمد عبد العال الجابر ومحمد شحرور وابو نصر حامد ومحمد اركون وادونيس ، ما وصلوا الى ما هم عليه الا بعد ان اسقطوا الرقيب وقدمت لهم الرعاية .

٢ – تأسيس جامعات واكاديميات عالية تعنى بالدراسات الانسانية وتختص بها .

٣ – وضع مقررات ومناهج جديدة للدراسات الانسانية تواكب المتغيرات العلمية والتجارب العالمية والمناهج المستحدثة ، والعمل على اعادة الصلة بالفكر الانساني العالمي .

٤ – الارتقاء بمراكز البحوث والعناية بها على انها عتبة البحث العلمي ومركز الدراسات الانسانية والانتقال بها الى مصاف المراكز العالمية .

٥ – اعادة النظر بكبار الاساتذة الذين استبعدهم التقاعد وهم في اعز العطاء وذروته ، خاصة وان مجتمعنا غير مستقر ومثل مجتمعنا لا يمتلك البدائل الكفؤة .

- **عينة من الدراسات المطلوبة التي يجب ان تتجه اليها الدراسات الانسانية**

أ – الدراسات السياسية : مطلوب ان يستخلصوا لنا نظرية حكم مناسبة ، مبينا مشكلة حاضرة منذ ٢٠٠٣ ترانى نتخبط بين المحاصصة والتوافقية ، والاقسام وكلها غير مجدية والمشكلة قائمة ، اين الدراسات السياسية من هذا ، هل سجلت اطروحة او رسالة بهذا الاتجاه .

ب – دراسات القانون والمجتمع : لدينا مشكلة النظام العشائري والقانون العشائري وهذا التفريخ الهائل من العشائر الجديدة وانقساماتها ، وما ترتب على ذلك من انقسام وتفتت وظهور سنن جديدة كلها تغاير القوانين العامة للدولة . اين الدراسات القانونية من هذا التقاطع بين سواني العشائر وقانون الدولة . اين الدراسات الاجتماعية من هذا التقاطع بين وحدة المجتمع وبنيته التاريخية وهذه الانقسامات .

ج – الدراسات الجغرافية : مشاكلنا كثيرة في حقل الجغرافية ... ادرسوا لنا المياه ومشكلة الانهار ، ادرسوا لنا الجفاف والتصحر ، ادرسوا لنا موانئنا ومستقبلها ازاء المتغيرات العالمية وفتح الطرق البرية والسككية .

د – الدراسات التاريخية : ادرسوا لنا السيرة النبوية ، حققوا النصوص ، استبعدوا الوضع والاضافة التي اتخمت بها السيرة ، اجمعوا المفقود المسبب منها .